الاستشراق الجديد وإشكالية الحوار بين الأنا والآخر

الدكتور: ناجي شنوف

أستاذ محاضر أ

جامعة يحي فارس -المدية-الجزائر-

ملخص البحث:

تسعى هذه الدراسة إلى وضع اليد على أهم مصادر الخطابات التي أفرزها الاستشراق الجديد لمعرفة الآخر، ليس في قراءاته ودراساته النظرية، وإنما الدخول في أعماق أفكاره وثقافته وحياته الاجتماعية والنفسية.

كما تنطلق من ضرورة إعلان ورقة طريق التعارف بين الحضارات من خلال نماذج إيجابية مستخلصة من المستشرقين تجلّي لنا منهجا وصفيا تحليليا نقديا مقارنا، القصد منه البحث عن المقاربات، والبحث عن الأفكار التي من شأنها تذكي الصراع بين الأنا والآخر لكي تقدّم لها وصفات فكرية تهدّئ إلى نسبة كبيرة من هذه الفوضى الحاصلة على مستوى الحضارات.

الكلمات المفتاحية: استشراق، ا، كلاسيكي، جديد ، العدو ، الأنا والآخر، الحوار الإيجابي...

Abstract :

New Orientalismand the problematic dialogue between theI AMand the other

This presentation aims toget hold ofthe mostimportant sources ofspeechthat broughtthe newOrientalismto know eachother,notin his readingand theoreticalstudies, butto get intothe depthsof his ideas,andculture andsocial and psychologicallife.

It alsostems from the needof the Declaration ofcivilizationsDatingsheet throughpositive modelsderived from theorientalistsTransfigurationof our approach anddescriptivecomparativecritical analysis, designed to look forapproachesand ideas thatwill fuelthe conflictbetween the self andthe other in orderto provide him withimportantintellectualcalmraterecipes for theseapparent chaosin terms ofcivilizations.

Keywords:Orientalism ; Classic; New ; Enemy;Meand the other;Positive dialogue.

مقدمة الدراسة:

لا يمكن الاعتقاد بأنّ الاستشراق بمدارسه الكبرى المتربعة على عرش عالم التنظير للمركزية الغربية قد انطفأت شعلته، وخفت صوته، وتلاشى في فلوات لا يمكن جمع أجزائه المبعثرة هنا وهناك.

نعم لقد نادت أصوات غربية بحذف هذا المفهوم ابتداء بمؤتمر موسكو سنة 1960 والذي اعترض عليه اعتراضا شديدا أدى إلى إلغائه في مؤتمر المستشرقين المنعقد بباريس (فرنسا) سنة **1973**، حين أُطلقت أصوات المؤتمرين بنهاية ليس الاستشراق وإنّما المصطلح كلفظة بنائية لا يمكن أن يُعتدّ بها في هذه اللحظات الجديدة مع ثورة في الأفكار اللسانية، وتقدّم تكنولوجي، وثورة في الهندسة الوراثية، حتى ثورة الكبار ـ **لمن يعتقد أنه كبير من أجل فتح أسواق داخل الحضارات التي تلقّفت دراسات موسّعة عنها، لكن ليس بنفس نمط الاستشراق التقليدي، وإنما فيما أطلق عليه استشراق ما بعد الاستشراق** ـ ، فكان لابد من التدبّر والتفكّر في البحث عن مصطلح جديد يحلّ محلّ المصطلح القديم، يُمحى اللفظ وتبقى الدلالات قائمة، خصوصا وأنّ في اعتقاد المؤتمرين أنّ الاستشراق يحمل في أطوائه العميقة آثارا سلبية جعلت من المستقبل له يعتقد أنّه نذير شؤم على البلدان التي مهّد (الاستشراق) للاستعمار أن يطلق كلّ ما يملك من أدوات الدمار والاستدمار على كلّ المستويات الأخلاقية والثقافية والمدنية للبلد المستعمَر.

و لا تؤمن هذه الدراسة بالاستشراق الساذج، كما لا تؤمن بالاستشراق الكولونيالي، لما تحمله من دلالات وجود استشراق يخدم نهضة الأمم التي خصّص لها كلّ دراساته وعمقه المنهجي، مع فتح مسارات منهجية في عدّ بعضالمنصفين من المستشرقين دارسي الحضارة الإسلامية دراسة منهجية ترقى إلى مستوى الأسلوب الحضاري المتعارف عليه بين الحضارات.

-إشكالية الدراسة:

من أجل ذلك تبنّت هذه الدراسة مسألة البحث عن مفردات دلالية مستوحاة من ثقافة الأنا والآخر، تحاول تجلية إشكالية عميقة وتجذّرة في اللاوعي بين الثنائيتين المتحاورتين أو المتصارعتين في الوقت نفسه ، أو اللتان تبحثان منذ أمد بعيد إلى يومنا هذا عن قواسم معرفية وأخلاقية تحاولان من خلالها الوصول إلى إقامة ميكانيزم تعارفي تُحشر فيه كلّ المواد القابلة للتآلف بين الأنا والآخر، في إشكالية معروضة على شكل معادلة منطقية، وهي لماذا يصرّ الأنا والآخر على إطالة الأزمة في شكل صراع دائم بين الحضارات؟ هل يعدّ الاستشراق سببا في هذه المعادلة التي تساهم في إذكاء نيران التحاقد والتباغض بين الحضارات؟، **وهل استطاع الأنا**

أن يصل مع أناه في إيجاد صيغة تحاورية إيجابية فيما بينه للخروج برزمة من المواقف تجعله في موقف قوة للحوار مع الآخر؟ وهل يمكن الاعتقاد بأنّ مواقف الاستشراق الجديد هي نفسها الاستشراق ما قبل 1973، **أم أنّ هنالك مصالح جديدة توجب على الآخر إطالة أمد الأزمة للحصول على منافع مادية ولو على حساب تفكيك العالم الحضاري؟**.

هناك مشكلة في صميم الانطلاقة الفعلية لإقامة حوار حضاري حقيقي بين الحضارات، مشكلة تقع المسؤولية الكبرى على عاتق الاستشراق الجديد الذي تساهم كثير من دوائره في إشعال فتائل الكراهية والعنصرية لكثير من الأسباب والأهداف التي لا ترتقي إلى الأهداف النبيلة التي تنشدها شعوب العالم.

- **أهمية الدراسة:**

تنبني أهمية الدراسة على التوغّل في المناطق الحسّاسة التي يحاول الاستشراق الجديد تقديمها في صور ضبابية نحاول تجليتها بمواقف مشرّفة، وكذلك بيان أنّ هناك بذورا لا زالت صالحة لكي تغرس في عالم الحضارات كلّها دون إقصاء أو إذلال، كما تتجلى أهمية الدراسة أنّ عالم الأنا لابد له من وعي إيجابي تجاه عالم الآخر دون السباحة في أعماق الوعي السلبي الذي من شأنه إذكاء فتيل الحقد والكراهية بينهما.

أولا: ماهية الاستشراق الجديد:

يتصّور متتبعو تأثير الاستشراق في منظومة الفكر الإسلامي بكلّ مكوّناته، أنّ أثرا بادٍ على تلك السيرورة البنائية لهذا الفكر، ولا يمكن لصاحب منطق أن يلغي معادلة الفعل الاستشراقي وتأثيره على هذه المنظومة ولو دلّل على صحّة منطقه بآلاف من الأدلّة الصريحة.

غير أنّه قد أضحى من الضرورات الفكرية المعرفية أن تتولّد لدى منظري الاستشراق سواء من بُناته ومُبدعيه المنتمين لمنظومة الفكر الغربي، أو المتبنين لقواعد ومنطلقات هذا الفكر أو الناقدين له أو الملغين لمعادلاته المنطقية من التدخّل في تحليل الفكر العربي الإسلامي، أنّه آن الأوان لتفكيك هذا المصطلح بمقتضيات الواقع الزمني المعيش، والتعايش معه في زمن هو من أخطر الأزمنة معالجة ومناظرة لهذا المصطلح من حيث كونه أنّه اقتحم مناطق نفوذ لم يكن ليلجها في زمن سابق.

ولهذا فإنّ نظرة تاريخية للمسار الزمني لهذا المفهوم، تجعل الباحثين يقسّمون ارتقاء وتطوّر وتكوّن هذا المصطلح عبر أزمنة أربعة هي:

-الاستشراق القديم.

-الاستشراق من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين إلى بدايات القرن الحادي والعشرين.-

الاستشراق من بعد منتصف القرن العشرين إلى بدايات القرن الحادي والعشرين.

-الاستشراق بعد أحداث 11 سبتمبر 2001[1].

غير أنّ هذا الرأي تختلف معه أراء باحثين آخرين في مراحل نشأة الاستشراق، فمنهم من يرى بأنّ هذا المفهوم قد مرّ عبر مراحل أهمها:

-المرحلة الأولى، من النشأة إلى الحرب العالمية الأولى.

المرحلة الثانية، وتشمل الإطار الزمني ما بين الحربين العالميتين.

-المرحلة الثالثة، تمتد من الحرب العالمية الثانية حتى مؤتمر باريس 1973.

-المرحلة الرابعة، من مؤتمر باريس سنة 1973 إلى وقتنا الحالي.

ومن هذا المنطلق يوافق الباحث بعضا من منظري الفكر الاستشراقي بأنّ ثمّة ضعفا مستشْرٍ في عدم المواكبة للأطروحات الاستشراقية الجديدة، وهو ضعف عام يعود بالأساس إلى قلّة المختصين في مجال الاستشراق، الذي تحوّل بمرور الوقت إلى تقليد مستهلك من الماضي، تجترّ فيه كتابات قديمة وردود مكرورة على أطروحات استشراقية عفى عليها الزمن[2].

وإذا سلّمنا بانطلاقة الاستشراق التقليدي من رحم الفكر الديني الكنسي ذي الاتجاهات المتشكّلة، فإنّ الاستشراق الجديد كسّر هذا التقليد، وتفرّع فيما بعد إلى "اتّجاهات سياسية وعلمانية"[3]، إذ نجد تصعيدا غير طبيعي لتشدّد في السياسات نتج عنها "اشتداد غلواء العولمة الثقافية والفكرية والتي بدورها شهدت منعطفا حادّا في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر **2001**، والتي توجب على النخب العربية والإسلامية بذل المزيد من الجهود في سبيل استيعاب ومواكبة الموقف الغربي من واقع المجتمعات"[4].

ثانيا: محدّدات الاستشراق الجديد:

حملت بذور الاستشراق القديم كراهية في قلوب كثير من الحضارات، خصوصا الحضارة الإسلامية، من أجل ذلك سعى كثير من المستشرقين الغربيين إلى ضرورة إلغاء هذا المصطلح من منظومة الفكر الغربي، وهذا في مؤتمر باريس سنة **1973**، واستبداله بمصطلحات أخرى، كان أهمها التصويت المستشرقين في مؤتمر باريس 1973 على حذف مصطلح الاستشراق من جذوره وتغييره باسم هو المؤتمر العالمي للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال إفريقيا"، ولقد تمّ تغيير اسم الاستشراق نهائيا عندما عُقد مؤتمران تحت اسم المؤتمر العالمي للدراسات الآسيوية والشمال إفريقية في بودابست "المجر" وفي روسيا سنة 1998.

غير أنّ حقيقة الأمر أنّه لا يمكن تغيير المناط الدلالي السيميائي لهذا المفهوم، ذلك أنّ إستراتيجية هذا الفكر لدى معتنقيه تؤكّد ضرورة استهداف الشرق وكلّ المناطق التي تضرّ بمصالح وإيديولوجيا منظومة الفكر الغربي، وعلى وفق قاعدة تغيير شكل ولفظ المصطلح لا مضمونه "بدأ التغيّر يظهر بشكل تدريجي في هذا المفهوم، منذ أواسط القرن العشرين، فبعد أن كان محتكرا من قبل فقهاء اللغة (الفيلولوجيين) والمحترفين في اللغات الشرقية، شهد الحقل كما يقول المستشرق الهولندي "جاك واردنبرغ"[5]، دخول باحثين من حقول معرفية أخرى، كالمتخصصين في العلوم الاجتماعية، وهي علم الاقتصاد، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، والعلوم السياسية، ودخل أحيانا المختصون في الأدب والفنون الذين انشغلوا وعلى نحو متزايد بدراسة المجتمعات والثقافات الإسلامية"[6].

ولقد أضحى من الضروري كما يرى أحد الباحثين التوجّه نحو الاستشراق الجديد، مع التيقّن بأنّ هناك استشراقا:" قديما من جهة، وأنّ هناك من جهة أخرى حاجة ماسّة لنستبدل به استشراقا آخر جديدا يحلّ محلّه، وينهض بمهمّات ووظائف لا تتيسّر لسابقه الذي استنفد أغراض وجوده ووظائفه التي أُسندت إليه من جانب مجتمعه"[7].

وتولّد هذه المحدّدات المعرفية للاستشراق الجديد مشكلة متّصلة به، خصوصا أنّنا في زمنٍ كثُر فيه الحديث عن الاستشراق، إذ تدعّمت المكتبة الفكرية المعرفية بكتابات من مختلف الأفكار ، وكما يذهب إليه أحد الباحثين أنّ معظم هذه الكتابات حملت في طيّاتها نزعات التأليف أكثر ما من شأنه يؤصّل لهذا المفهوم.

وأخطر من ذلك أنّ الاستشراق الجديد لم يعد مقتصرا على:"الدّارسين الغربيين وحسب، وإنّما يستعين بجيش من الدّارسين والمحللين العرب تكاد تقتصر مهمّتهم الكبرى على دعم التصوّرات المنتجة عن الإسلام والعرب"[8].

ثالثا: الاستشراق الجديد والأهداف المشبوهة:

إنّ أخطر الأدوات والوسائل التي يملكها الاستشراق الجديد، امتلاك دوله دبلوماسية المؤامرة وآلية الغزو الثقافي، وأخطر ما في ذلك الركائز العسكرية التي تمثّل" منصة انطلاق لغزو ثقافي خطّط له من زمن بعيد في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة..."[9] ، وفي ظلّ هذا كلّه يجد الشرقيون أنفسهم "سعداء مبهورين بهذه الأضواء الزائفة، التي تلوّن حياتنا بالتقدّم والتحضر..."[10].

ويكاد المجتمع العربي الإسلامي والحضارات الأخرى المقابلة للآخر الغربي تغرق في وحل الإسقاطات المصطلحية الوهمية التي قذفت بمجتمعاتنا في فضاءات الضياع الفكري بكلّ مستوياته، فلم تعد تجد لطريق الصواب منفذا تنفذ منه، ولقد أصبحت "عدوى العولمة التي

انتشرت في كلّ ما يتّصل من تفكير في العلاقات الدولية منذ نهاية حرب الخليج الثانية سنة 1991، التي أعلنت ولادة النظام العالمي الجديد، وباتت تهدد دراسات المنطقة التي توسّم فيها دارسو الشرق الأوسط سبيلا للخروج من أزمة الدراسات الشرق أوسطية بخاصة، والدراسات الاستشراقية بعامة[11].

لقد أضحى الاستشراق الجديد رغم وجود ركائز فكرية استشراقية معتدلة، ففي أحد تقارير الدول المتبنية للصراع الحاد مع الآخر أنّ "إحدى الوسائل الأساسية للقضاء على الجانب الديني يجب أن تتضمن إغراق الشعوب العربية الإسلامية بأنماط مختلفة من الحياة العصرية الغربية...وأن تقتنع الشعوب العربية الإسلامية بأنماط مختلفة من أدوات التكنولوجيا الحديثة، وأن يتمّ نشر أنماطا جديدة من التنمية في هذه المجتمعات تعتمد أساسا على الأسلوب الغربي"[12].

فمن أهم الأهداف المشبوهة للاستشراق الجديد:

1- تشويه صورة الآخر:

ففي ظلّ التسارع والتدفّق الهائل للمعرفة بكلّ مستوياتها، ظهرت حيثية خطيرة وهي أحقية امتلاك المعلومة، ومنعها عن الآخرين ليتسنى له التحكم في مقدرات الشعوب الأخرى، ولما كانت العقلية الإسلامية لا ترضخ لمثل هذه التهديدات، حاول الاستشراق الجديد نقل صورة الإسلام "من الأكاديمية الاستشراقية إلى مستوى الرأي العام –الغربي- مشوّهة مبتورة، وكان وراء هذا عدة عوامل:

- من حيث كونه لاهوتيا، أي من جهة كونه دينيا، ليس مثل غيره من الديانات، بل صورة محرّفة عن المسيحية.
- من حيث كونه مفهوما ثقافيا واجتماعيا، وهذه ناشئة عن تقاليد وإحساسات الشعوب الإسلامية المختلفة.
- من حيث كونه ممارسات سياسية واقتصادية ومنظمات.
- من حيث كونه مرتبطا بأوضاع الدول الإسلامية وتصرفاتها، وهي التي تؤلف حاليا المجتمع الإسلامي.
- كذلك ينظر إليه من مقياس المذهبيات الإسلامية المعاصرة، بينما الإسلام هو رؤية واحدة لا تتعدّد، هو الدين الإلهي المنزّل، والأسلوب الملائم للتفكير والعمل، بالإضافة إلى أنّه ثقافة ومنهج للتنظيم الاجتماعي[13].

لقد أراد الاستشراق الغربي الجديد تنميط النظام المشرقي التكاملي، بحيث أراد أن يفهم الأمر على غير صورته، مع تيقنّه بعدالة الخصوصية الثقافية لكلّ مجتمع من مجتمعات العالم، وهو قرار

تعسّفي يتحمّل مسؤوليته النابعة من "الكِبر العنصري، أو خداع النفس، والذي لا يمكن إلاّ أن يشوّه فهم الإنسان للحقائق الاجتماعية والسياسية"[14].

2- التركيز على المنطق المعكوس في الحكم على الآخر:

وظّف الاستشراق الجديد في معاملته مع الآخر تشويه التراث القومي للمجتمع المشرقي، معتمدا على أهم ما تملكه تلك المجتمعات وتعتقده وهو الإسلام، إذ صوّر الدّين على أنّه:

أ- أكذوبة وتشويه متعمّد للحقيقية.

ب- أنّه دين العنف والسيف.

ج- أنّه دين يطلق لشهوات المرء العنان.

د- أنّ محمّدا هو المسيح الدجّال[15].

يقول "**مونتجمري وات**": "هذه إذن هي الجوانب الرئيسية الأربعة للصورة الشائهة عن الإسلام التي تكوّنت في أوروبا فيما بين القرن الثاني عشر والرابع عشر، وهي تحمل إيحاءات بجوانب لصورة مناقضة للعالم المسيحي الكاثوليكي، وحيث أنّ هذه النظرة التي ينظرها الأوروبيون الغربيون إلى أنفسهم، فإنّه يمكن أن نسمّي هذه الصورة الأخيرة الموحى بها صورة أوربا الغربية، وقد كانوا يعتقدون أنّ المسيحية حقّ مطلق، وأنها تخاطب العقل، وأنّها دين سلام، وتسعى إلى هداية الناس بالإقناع"[16].

وليس غريبا على منظّري الفكر الغربي وناقدي أساليبه أن يقوموا باكتشاف السبب المباشر في هذه المشكلة، والذي عزوا سببه إلى إصابة صورة العدو الوهمي بالتصدّع والشروخ مع سقوط المعسكر الشيوعي **1989-1990**، إذ أصبح توظيفها في طيّ النسيان لعدم صلاحيتها " من قبل القادة العسكريين ومنتجي السلاح، أو المسئولين لمواصلة تبرير ارتفاع النفقات العسكرية في الغرب، لكن هذه الفكرة بقيت مترسّخة في العقل الباطني لمنطقة الغرب، ونجد أنّ ساعة استيقاظها بدأت تلوح في أفق الغزو العراقي للكويت سنة 1990، والذي وجدته المنظومة الغربية فرصة سانحة إلى درجة أنّ البعض لم يشأ أن يصدّق في الواقع أنّ هذا قد حدث من قبيل الصدفة، ليقدّم للعالم المتمدين عدوا وهميا جديدا وهو الإسلام... وبعد ذلك شيّدت البنية العلوية الإيديولوجية لصورة العدو الوهمي الجديد"[17].

رابعا: الاستشراق الجديد والكراهية:

إنّ مسألة تصنيف المستشرقين في تحديد نسب الكراهية ، لها من الأهمية ما لا يجوز إغفالها إذ تقتضي النظرة في أثر الاستشراق في صناعة الكراهية بين الثقافات تصنيف فئات المستشرقين، أولا من حيث الزمان، ثم من حيث المدارس الاستشراقية ومدى القرب النسبي لهذه الفئات والمدارس من الإنصاف، كالمدرسة الألمانية وبعدها عنه كالمدرسة الفرنسية، أخذا في

الحسبان أنّ المستشرق نفسه يظهر تارة منصفا، ويظهر تارة أخرى غير منصف مثل "**مونتجمري وات**" ، فما كان منصفا لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عندما زعم أنّ محمّدا هو مؤلف القرآن الكريم في كتابه "**محمد النبي والقائد**"، ثم عاد إلى الإنصاف في هذه المسألة، واعترف في كتاب متأخر بعنوان "**الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر**"، بأنّ هذا القرآن ليس من صنع محمّدٍ –صلى الله عليه وسلم–، وإن يكن قصّر في التصريح بأنّ القرآن الكريم وحي من الله.

لقد بالغ المنهج الاستشراقي في جزئه المضاد في تكريس سياسة الضغط والتهديد، ونشر بذور الكراهية تجاه الإسلام والمسلمين، إذ نجح في تحديد صورة العدوّ الوهمي الجديد وهو الإسلام، فلقد باشر في زرع بذور الفتنة والكراهية في الوسط الغربي، لكنّ هذه السياسة التمييزية من قبل بعض المستشرقين لا يمكن أن تؤتي نتاجها، إذ أنّ الإسلام لن يتأثّر سلبا بهذه السياسات، ولا ببيئة الكراهية الناجمة عنها.

لقد جعلت كراهية الغرب للحضارات التي تنافسها وجودها ، وتنازعها مصالحها من كاتبين فرنسيين هما "مارتين بولارد"[18]، و"جاك دبون"[19]، يحاولان تقديم خطابا يخالف الخطاب السائد، فإحساس الغرب بكراهيته لتلك الحضارات علامة غير محبّذة لجهاز التواصل الحضاري، وهو يدقّ جرس الخطر معلنا بأنّ **الغرب مريض بمرض هو الغرب نفسه**، إذ من خلال قراءتهما على الغرب الذي" يعيش نفسه كأنّه حيوان مطارد من قِبل أعداء يهاجمونه من كلّ جهة، من الأزمة التي تزعزع النموذج الغربي نفسه، ومن قِبل انحطاط نسبي للإمبراطورية الأمريكية التي تحسّ بنفسها مهدّدة في زعامتها من قبل الصين الذي ينظر إليها باعتبارها قوة الغد..."[20].

ويتساءل المؤلفان:" لماذا يتوجّب باستمرار وضع الغرب في مواجهة الآخرين أيّا كانوا، وباسم ماذا ثمّة أساس لتحويل الكرة الأرضية إلى حلبة صراع عبْثى يتواجه فيها الغرب وبقية العالم، كما نجد أنّ المؤلفين يرسمان لنا صورة مخيفة عن النخب المتعجرفة، حينما تمارس موهبتها تقوم بإشاعة الإرهاب الفكري، مطيحة بكلّ من يرفض أن يُبجِّل كلامها المقدّس، ملوك التبسيطية كما يطلق المؤلفان على النخب الغربية، ، الطيّبون الغرب وحلفاؤه، والأشرار كلّ الآخرين، يوجد المعسكر الغربي وهو بالطبع حامل للقيم التحررية، وباقي العالم ميال بطريقة أو بأخرى إلى البربرية.

وهو ما جعل من المستشرق الإنجليزي "**برنارد لويس**" يرى العالم اخترقه من أربعة عشر قرنا صراع بين عقيدتين أساسيتين الإسلام والمسيحية، ويعتقد أنّ الأمر سيسير على النهج حتى ينتصر واحد منهما على الآخر، كما أنّ المفكّر والكاتب الليبرالي "غي سورمان" نجده ينظر بالدونية لكلّ ما ليس غربيا، ويذهب إلى درجة التصريح بقوله: " لحدّ الساعة لم يمنحنا التاريخ أيّ مثال عن تحديث تمّ خارج الغرب"، وهو ما دفع بالكاتبين إلى اعتبارهم جهلا رهيبا بالتاريخ[21].

خامسا: الاستشراق الجديد ومحدّدات الحوار الإيجابي بين الأنا والآخر:

قبل أن نلج موضوع هذه المحدّدات، لابدّ من إجراء عملية تفكيكية بسيطة لأهم فئات المستشرقين الذين كان لهم الدور البارز في وضع أسس الحوار العام بين حضارتهم وحضارات العالم، وفي مقدّمتها الحضارة الإسلامية، فلقد تأثّرت حركة الاستشراق في الغرب بالمحدّد السياسي وموقفه تجاه الحضارة الإسلامية في أوروبا خصوصا في فترة الحروب، ومع ضعف الحضارة كيان الدولة العثمانية التي كانت تقيم بجوار أوربا بدأ الانفتاح الثقافي نحو الشرق الإسلامي في أوروبا، وفي هذه الفترة بالذات أصبحت الرحلات إلى الشرق في ازدياد[22].

من أجل ذلك دعت الضرورة إلى تقسيم فئات المستشرقين الذين اهتموا بالشرق، وأفردوا له موسوعات معظمها ذاتي مستخلص من الذات الشرقية، فمن أهم هذه الفرق:

- فريق من طلاب الأساطير والغرائب الذين كان همّهم إبراز خصائص الحضارة الإسلامية في ثوب من الدجل والشعوذة، والغوص في الأساطير التي تتنافى والمنهج العلمي، ما إصرارهم على إبراز النتاج الثقافي الذي أفرزته عقلية متأثّرة بالتقاليد البالية، كألف ليلة وليلة، وغيره من الكتب المماثلة والتي تعكس صورة الشرق المتخيّل لدى المستشرقين، أملى على المتخصصين الحكم على هذه الفئة من المستشرقين بانتفاء توظيف منهج علمي موضوعي يسقطونه في تحليلهم للصورة المشرقية، وهو هدف أُريد من خلاله تشويه ثوابت الحضارة الإسلامية ومساراتها المعتدلة ، " وقد ظهر هذا الفريق في بداية نشأة الاستشراق واختفى بالتدرّج"[23].
- فريق من المستشرقين وظّفوا أساليبهم ومناهجهم في تدعيم المصالح الغربية الاقتصادية والسياسية الاستعمارية القائمة على أهداف ذرائعية، غير أنّ البعض يعتقد أنّ هذا الإسناد غير مبرّر حيث يكون من الخطأ إذا "قلّلنا من أهمية مخزون المعرفة الموثّقة والتقنيات الاستشراقية في كتابات الغربيين من أمثال "كرومر"* ، فأن نقول ببساطة إنّ الاستشراق كان إضافة لعقلنة منظّرة مسوّغة على الحكم الاستعماري هو أن نهمل المدى البعيد الذي كان عليه الحكم الاستعماري قد سوّغ من قبل الاستشراق بصورة مسبقة لا بعد أن حدث"[24].
- وفريق غابت عن أفكاره ومناهجه وأقلامه روح العلمية، والنزاهة الفكرية، فتمارى في بثّ الشكوك في تراث الحضارة الإسلامية، من أمثال "بُدْولِ"[25]، و"بريدو"[26] و"سيل"[27]، من القرن الثامن عشر.
- وفريق آخر واكب المنهج العلمي، غير أنّه نهج طريق الغاية تبرّر الوسيلة، لما في هذا المنهج من أثر سلبي على المادة أو العيّنة أو التراث المراد دراسته، فانصبّت جهود المستشرقين في إبراز عوامل الضعف في الحضارة الإسلامية، والتشكيك في ثوابتها، والحطّ من إنجازاتها

باسم منهج البحث العلمي، وهو ما أكّده "رودي بارت"[28]، في قوله:" فنحن معشر المستشرقين عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية والعلوم الإسلامية، لا نقوم بها قطّ لكي نبرهن على ضعة العالم العربي الإسلامي، بل على العكس، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثّله الإسلام، ومظاهره المختلفة، والذي عبّر عنه الأدب العربي كتابة، ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كلّ شيء ترويه المصادر على عواهنه، **دون أن نُعْمِل في النظر**، بل نقيم وزنا فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي أو يبدو وكأنّه يثبت أمامه، ونحن في هذا نطبّق على الإسلام وتاريخه وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبّقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدوّنة لعالمنا نحن"[29].

غير أنّ الاستشراق يبقى يترواح مكانه في تبرير سياسة الغرب في الهيمنة على الشرق، أو ما يسمى بالصراع الحضاري "الصراع بين الأنا والآخر"، فرغم النقلات الهامة التي شهدها الاستشراق "على مدى القرنين المنصرمين ، ظلّ في الجوهر عاجزا عن التطوّر بسبب تمسّكه بخرافة كبرى حول الشرق، أنّ الثقافة الشرقية هي في حدّ ذاتها ثقافة التطوّر الموقوف بصفة دائمة"[30]، فإذا اتّسم الفكر الاستشراقي بهذا الوصف، **تصعب إمكانية بناء صرح تعارفي بين الحضارتين**، ولن يتمّ هذا إلاّ إذا أزاح الاستشراق هذه المعادلة الاحتمالية عن نسقه الفكري، وإرادته الحوار مع الآخر، وبمعنى آخر لابدّ من إزاحة مزاعم القوة والمعرفة التي يعتقدها الغرب في بسط هيمنته على الآخر، وذلك بوجود إرادة عازمة على مثل هذا التعارف أو التواصل بين الحضارات دون إقصاء لأيّ طرف للآخر.

وإذا كان الغرب يعتقد أنّه حاز قصب التقدّم في كلّ المجالات الحياتية، وأنّه حائز على سلطة القوة والمعرفة، فإنّ العالم الأنتربولوجي البريطاني "**جاك غودي**"* يردّ على مثل هذه المزاعم مصححا القضية بتأكيده على عدم وجود "**استثناء غربي**"، والأمر فيما يخص الحداثة الغربية ليس سوى دوران لعقرب الساعة، فقد كان زمن ولّى كانت فيه العقارب تتجه نحو العالم العربي الإسلامي في كثير من الميادين كان العالم الإسلامي متقدّما على أوربا...

كما أنّ واقع الحال يتحدّث عن بعض متخصصي الاستشراق كانت لهم "جهود واضحة في **صناعة الوئام بين الثقافات**، وكانوا وسائط لتعريف الغرب بالثقافة الإسلامية تحديدا، من خلال الدراسات والبحوث والترجمة والنقل وحفظ التراث العربي الإسلامي، وفهرسته وتصنيفه وترميم المعطوب منه، ولا ينبغي التغاضي عن هذه الجهود الواضحة، كما لا ينبغي الالتفاف على هذه الجهود والحط من قدرها"[31].

سادسا: الأنا والآخر الإيجابيين:

نجد أنّ كثيرا من المنتسبين للفكر الاستشراقي تميّز منهجهم النقدي من خلال ما تلقّوه من مبادئ أفكار متصلة اتصالا مباشرا ببيئتهم، أو من خلال ذاتيتهم، ليطلقوا مثل هذه الأحكام القاسية على الحضارات، ومن بينها الحضارة الإسلامية، وما دفع بأحد المنصفين وهو السيّد مراد هوفمان* الذي يرى بأنّ :"نهضة الدين تفاجئ فقط أولئك الذين يؤمنون بالحداثة بطريقة أسطورية وثنية جديدة، والواقع أنّه لا يوجد بلد في العالم اختفى منه الدّين تماما"[32].

وإنّ الإحساس بالتهديد الآتي من الشرق يدفع بـ"جون إسبوزيتو"* إلى تأييد المستشرق الألماني "فريتس شتيبات"*إذ يقول:" إنّ الإسلام لا يمثّل تهديدا للعالم، بل العكس ذلك هو الصحيح، فالكثير من المسلمين يشعرون في عالمنا الحاضر بأنّهم مهدّدون، ربّما يتسبّب هذا الشعور في ظهور بعض الاتّجاهات اللاعقلية أو التصرّفات العدوانية"[33].

ولهذا كان من المنهج العلمي الموضوعي أن تحدث في أفق بَسْطِ وِصال الودّ بين الأنا والآخر المنتجين للأفكار فيما بينهما توخي العمق والمتابعة للإسهامات الثقافية، وبعدم استعجال التعميم في الحكم على بعضهما البعض، على أن كلّ واحد منهما كان "طرفا مباشرا في صناعة الكراهية، فالأمر هنا يقتضي قدرا من التفصيل"[34].

ونوافق أحد الباحثين في عدم توفّر منهج وميزان دقيق في تمييز المستشرق المنصف من عدم إنصافه، مع اعتبار وجود المنصفين منهم، مع التأكيد على عدم "نسيان إسهاماتهم في توعية قومهم عن حقيقة الثقافة الإسلامية وبعدها عمّا ألصقه بها إخوة لهم من المستشرقين"[35].

ولكي تتدعّم أواصر الحوار الإيجابي بين الثقافتين، ولكي يترتّب تناسق وتعارف وانسجام بينهما، يلتزم كلاهما من خلال الحوار بـ:

-اعتراف كلّ طرف بالآخر.

-احترام كلّ طرف للآخر.

-الإيمان بالنديّة والمساواة.

-الانفتاح على الآخر نفسيا وفكريا وموضوعيا، وعدم وضع شروط مسبقة[36].

كما يشترط في الجانب التنظيري للثقافة الإسلامية أن يلتزم بأدوات الحوار الراشد، وإقصاء نزعة الخلفية السلبية وإبعادها عن رشادة المنطق التحاوري ، والنظر إلى الآخر من حيث كونه "أحد المحدّدات المهمّة في العلاقات بين الثقافات، لاسيما في العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، فإنّ هذا يعني إعطاء هذا المحدّد القيمة الفعلية التي يُنظر من خلالها إلى إسهاماته في **التقريب بين الثقافات**، أو في الإسهام من جانب آخر في تأصيل مفهوم الافتراق والتضاد والتناحر بين الثقافات"[37].

كما يلتزم الجانب الآخر مبدأ الإيجابية تجاه الآخر الذي هو الأنا في مقابل الآخر من خلال وجود أهداف تُتَوخّى لبسط قواعد الحوار الإيجابي بين المنظومتين الفكريتين من شأنه يحفّز "على العمل في حقل دراسات المنطقة، ويوجّه برامج هذا العمل وخططه وإجراءاته في مركز إنتاج المعرفة الخاصة بكلّ منطقة، سواء كانت هذه المراكز في داخل هذه المنطقة أم في خارجها، من خلال هدفين هما:

أ-توظيف المعرفة الخاصة بالمنطقة للارتقاء بإنسان هذه المنطقة في جميع وجوه حياته.

ب-توظيف المعرفة الخاصة بالمناطق المختلفة في عملية التفاهم بين المناطق والشعوب والأمم المختلفة.

من أجل ذلك فإنّ كلّ الجهود موجّهة في وقتنا المعاصر إلى إحداث شبه توازن في العملية الحوارية بين الأنا والآخر، مع توجيه كلّ الجهود في خفض شدّة التوتر الحاصل بين الحضارات، ومحاولة الارتقاء بالأسلوب التواصلي إلى أرقى درجات التحضّر بين الأطراف المتحاورة للوصول إلى قاعدة التفاوض الإيجابي من أحل عيش أفضل، وتفاهم بل وتعارف بين الحضارات، يلعب فيها الاستشراق الجديد دور المراقب والمنظّر والموازن لأصول التعارف من خلال بيئته التي يتواجد فيها، وكذلك للذات العربية الإسلامية من أجل معرفة دورها الحضاري المنوط، وعلاقتها الحضارية التعارفية بينها وبين الحضارات الأخرى من أجل تعايش أفضل يدوم بدوام احترام الأنا للآخر.

الخاتمة:

لقد رسخت في ذاتية الأنا والآخر ومنهجهما التفكيري من خلال هذه الدراسة أنّه لابد من وضع أصول وقواعد التحاور الحضاري الإيجابي، ونبذ كلّ الأشكال السلبية التي من شأنها تزيد من وتيرة التشاحن والتصادم بين الحضارات، كما تنبّه هذه الدراسة المستشرقين المتواجدين في فلك الاستشراق الجديد إعادة قراءة الآخر ليس بمنهجه الذي تبناه وفق أصول وقواعد التقاليد والأعراف التي نشأ عليها في بيئته، وإنما تبنّي مواقف حضارية كالتي تبناها المنصفون من المستشرقين من أجل بناء متوازن للحضارات.

من أجل ذلك تبنت هذه الدراسة جملة من النتائج أهمها:

1-لابدّ من تحيين أو تجديد عملية التصنيف في التراث الاستشراقي مع أهمية وضع الاستشراق الجديد نصب الاهتمام في الدراسات الجديدة، والمتجددة، لما يحمله من أفكار يجب دراستها وصفا وتحليلا و مقارنة ونقدا...

2-وكما يرى أحد الباحثين* فإنّ حاجة ماسة لإنشاء تقليد ثقافي بديل عن المعرفة الاستشراقية الذي لا يرقى بوضعه الحالي إلى الطموحات الإنسانية في معرفة النفس أو في معرفة

الآخر، ولاسيما أنّ المعرفة الإنسانية لا تكون معرفة حقيقية جديرة باسمها دون أن تكون مؤسسة على الشراكة بين الأنا والآخر، وبعبارة أخرى ثمّة حاجة ماسّة إلى "استشراق جديد" يستند إلى أسس منهجية موضوعية وأخلاقية تتحكّم في إنتاجه من جهة، مثلما توجّه مقاصده من جهة أخرى.

وأوّل هذه الأسس هو قيام الاستشراق الجديد على مبدأ الشراكة المعرفية بين جميع منتجي المعرفة المتصلة بالشرق بصرف النّظر عن قومياتهم وأجناسهم وأديانهم ولغاتهم.

3- لابدّ من التفريق بين من يناوئ الغرب وسياسته وتحديده كعدوّ وهمي، وبين من يحافظ على شخصيته التي تلقّفها من واقع بيئته التي نشأ فيها، وكوّن نتاجا اجتماعيا معرفيا خاصا به وهو لا يرضى أن يأخذ من الغرب كلّ ما يريد الغرب من الآخر أخذه عنه، وإنّما شخصيته وأعرافه وتقاليده وأخلاقه تملي عليه ضرورة الأخذ من الغرب ما يوافق تلك الشخصية لا أن يسلبها حقّها في الإرادة، فتصبح لها قابلية للاستعمار.

4- على الغرب أن ينظر إلى الآخر (المختلف معه) بنظرة احترام وندّية، مع الالتزام بإقامة جسور التعارف فيما بينه وبين من يحاوره لتهدئة مناطق التشاحن والتعصب والكراهية التي من سلبياتها الهدم والصراع الدائم دوام الأزمة.

توصيات الدراسة: توصي الدراسة بـ:

1- ضرورة الالتزام الأخلاقي لمنظومة الاستشراق والمستشرقين في الامتناع عن إذكاء نيران الفتنة بين الحضارات، كما يلتزم الجانب الآخر بتحديد مقومات التعارف بين الحضارات التي نصّت عليها شرائعهم لا أن يجتهدوا في شيطنة الغرب.

2- الوضع جانبا كلّ الخلافات المبنية على الأصول التي لا نجد لها حلاّ في الأفق، ولو تباعدت الأزمنة، والعمل سويا وفق قاعدة التعارف بين الثقافات أو ما شابه ذلك من المفاهيم والمصطلحات، وهذا من أجل تهدئة مؤشّر الصراع الذي بلغ أشدّه في زمننا هذا.

3- سعي الدول والحكومات من مختلف الحضارات في إيجاد مناطق التفاهم بينها وبين الآخر من أجل الوصول إلى حلول إيجابية تقيهم الدخول في أنفاق مظلمة من الصراعات.

4- إبراز دور القطاع التعليمي من أصوله الأولى إلى المراكز المتخصصة في إيجاد حلول مستعجلة لهذه الآفة، أو عدوى الصراع المتأجّج بين الحضارات، وكذا تفعيل دور منظمات المجتمعات المدني في هذه التهدئة.

5- تهيئة نخب علمية متخصصة في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية على كلّ المستويات، من أجل تصنيف هذا الاستشراق الجديد الذي ظهر بأدوات تحليل جديدة لم توجد في السابق.

مراجع الدراسة:

[1]عبد الله عبد الرحمن الوهيبي، حول الاستشراق الجديد، مقدمات أولية، مكتبة فهد الوطنية، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر، 2013، ص،18، وص،23. بتصرف.

[2] المرجع نفسه، ص،07.

[3]مازن مطبقاني ، صراع الغرب مع الإسلام، مركز الفكر المعاصر، السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر، 2013،ص،20.

[4] المرجع نفسه، ص،21.

[5]ولد في هارلمبهولندا سنة 1930، عالمٌ لاهوتٍ ، مختصّ في الدراسات الدينية والإسلامية.

[6]عبد النبي أصطيف، نحو استشراق جديد، مجلة الاجتهاد، بيروت، لبنان، العدد 50-51 ،،ص،39، السنة الثالثة عشر، سنة النشر، 2001.

[7]المرجع نفسه،ص،35.

[8]عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي، حول الاستشراق الجديد، مرجع سبق ذكره، ص،8.

[9]أحمد سويلم، ثقافتنا في مفترق الطرق، مكتبة الشروق الدولية، مصر، الطبعة الأولى، سنة النشر، 2004،ص،10.

[10]المرجع نفسه، ص،10.

[11] عبد النبي أصطيف، الاستشراق الأمريكي من النهضة إلى السقوط، مجلة المستقبل العربي، بيروت، لبنان، العدد 223، ص،29 ، السنة السابعة، سنة النشر، 1990.

[12]أحمد سويلم، ثقافتنا في مفترق الطرق، مرجع سبق ذكره، ص،28.

[13]محمد إبراهيم الفيومي، الاستشراق رسالة الاستعمار، دار الفكر العربي، مصر، طبعة سنة 1999،ص،394.

[14]مازن مطبقاني، صراع الغرب مع الإسلام، مرجع سبق ذكره،ص،21.

[15]مونتجمري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية،ترجمة حسين أحمد أمين، دار الشروق، مصر، الطبعة الأولى، سنة النشر، 1983، ص،100.

[16]المرجع نفسه، ص،100.

[17]صورة الإسلام في التراث الغربي، دراسات ألمانية، ترجمة ثابت عبدو، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، سنة النشر، 1999،ص،12.

[18]المديرة المساعدة في شهرية "لوموند ديبلوماتيك".

[19]المدير المساعد في أسبوعية ماريان.

[20]www.alzaytouna.net/permalink/5168.html

[21]www.alzaytouna.net/permalink/5168.html

[22]ناجيا أنجليسكو، الاستشراق والحوار الثقافي، منشورات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، طبعة سنة 1999،ص،21.

[23]محمودي حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، كتاب الأمّة، قطر، سنة النشر 1404هـ، ص،42.

* اللورد كرومر 1841-1917، رجل دبلوماسي وإداري مستعمرات بريطانيا، من أهمّ آرائه:

- ادّعاؤه أنّ الدين الإسلامي منافٍ للمدنية.
- يتص المسلمون بالخمول والكسل لأنّ دينهم يأمرهم بذلك.
- مناقضة الإسلام للمدنية
- دعوته بحرية التبشير والإرساليات واحقيتها في إنشاء امكان العبادة
- دعوته لإنشاء جيل من العرب يحملون صفة الأوربي المتمدّن في لباسه وأكله.

(24)إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، د،ت،ن،ص،70.

(25)وليم بِدْوِلْ 1561 - 1632 هو مستشرق إنكليزي. ينعته الإنكليز بأبي الدراسات العربية.

(26))- همفري بريدو1648-1724، هو مستشرق إنگـليزي اشتهر بكتابه «حياة محمد»، الذي نشر سنة 1697 م . بريدو موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بديوي.

(27)جورج سيل 1679-1736 هو مستشرق إنجليزي ومحامي.

(28)رودي بارت 1901-1983، مستشرق ألماني، ترجم القرآن إلى الألمانية مع شرح فيلولوجي.

(29)رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، د.ت.ن،ص10.

(30)عفاف صبره، المستشرقون ومشكلات الحضارة، دار النهضة العربية، مصر، طبعة سنة 1985،ص،30.

* ولد في بريطانيا سنة 1919، وهو أحد كبار الأنثروبولوجيا في العالم، أهم مؤلفاته، الشرق في الغرب، سرقة التاريخ، الإسلام في أوروبا،تدجين الفكر، فهو يرى أنّ أوروبا رأت نفسها الوريث الوحيد والمباشر للعصور القديمة، القائمة على الغطرسة والهيمنة، فأنتجت مجتمعات على نفس غطرسة تلك العصور. كما يرى بأنّ الغرب استولى على الديمقراطية التي كانت إرثا مشتركا بين كلّ الشعوب.

(31)يحي مراد، معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طبعة سنة 2004، ص،61.

* مراد ويلفريد هوفمان، ولد سنة 1931 ، ألماني الجنسية، تحصّل على دكتوراه في القانون، أسلم سنة 1980، له مؤلفات عديدة، أهمها الإسلام كبديل، الإسلام في الألفية الثالثة، ديانة في صعود، رحلة إلى مكة.

(32)مراد ويلفريد هوفمان، مستقبل الإسلام في الشرق والغرب، ترجمة إبراهيم يحي الشهابي، دار الفكر، دمشق، سورية، طبعة سنة 2008،ص،133.

* ولد سنة 1940، بنيوروك ، الولايات المتحدة الامريكية،أستاذ جامعي في الأديان والشؤون الدولية، والدراسات الإسلامية،والمدير المؤسس لمركز الوليد بن طلال للتفاهم الإسلامي المسيحي، وهو رئيس تحرير موسوعة أكسفورد للعالم الإسلامي، له مؤلفات أهمها، من يتحدث باسم الإسلام، الحرب غير المقدسة.

* أحد أعمدة الاستشراق الألماني، ولد سنة 1933، مؤسس سلسلة الدراسات البيرونية عند رئاسته للمعهد الشرقي ببيروت سنة 1963،تولى ببرلين عمادة معهد العلوم الإسلامية بالجامعة الحرة،من 1969 إلى 1988، يعدّ من الأوائل الذي انتقدوا مقلة صمويل هنتغتون، أهم مؤلفاته، الإسلام شريكا.

(33)علي بن إبراهيم النملة، صناعة الكراهية بين الثقافات، وأثر الاستشراق في افتعالها، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، سنة النشر،2008،ص،88.

(34)المرجع نفسه،ص،88.

(35)حسين جمعة، ثقافة الحوار مع الآخر، مجلة جامعة دمشق، سورية، المجلّد 24،العدد الثالث والرابع، ص،12سنة النشر 2008.

[36]علي بن إبراهيم النملة، صناعة الكراهية بين الثقافات، وأثر الاستشراق في افتعالها، مرجع سبق ذكره،88.

[37]عبد النبي أصطيف، الاستشراق الأمريكي من النهضة إلى السقوط، مرجع سبق ذكره،ص،41.

*عبد النبي أصطيف، مفكر وأديب، سوري، رئيس قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة دمشق، سورية.